شعر صبري

أقطاب الشعر العصري في مصر اربعة : محمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري واحمد بك شوقي وحافظ بك ابراهيم . حظني الحظ بمعرفتهم عن أتم معرفة متفاوتة النسب . تشرفت بمعرفة البارودي في مجلس الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في عين شمس سنة ١٩٠١ وعرفت صبري مرة في المقهى وكان أحيل على المعاش (وكيل وزارة العدل آخر وظائفه) أي اني عرفت الشاعرين العظيمين معرفة بسيطة في آخر ايامهما . اما معرفتي شوقي فكانت في المقاهي اولاً ثم في البيوت والحفلات في مصر والشام . وكانت عشرتي مع حافظ طويلة ، وصداقتي متينة ، واجتماعاتنا مختلفة في اعوام عديدة ، تبدأ من دار الاستاذ الامام وتنتهي في بعض المقاهي .

ومن عجائب الاتفاق ان نشأة البارودي وحافظ جندية ، ونشأة صبري وشوقي حقوقية ، وكلهم نشأوا في كنف الدولة ورعايتها ، ولقوا من أمتهم العطف والحظوة . الثلاثة لم يثوروا على المجتمع الا بقدر معلوم ، بخلاف الرابع اي حافظ ابراهيم فانه ثار عليه حينما كان حراً طليقاً حتى اذا قيدوه بالعمل في الحكومة خفتَ صوته .

وأحدثكم اليوم عن شعر صبري استاذ شوقي وحافظ ، وكان شاعراً موهوباً شهد له العارفون (بخفة الروح ، ورقة الحس ، ودقة الخيال ، وامتياز الطبع ، وحدة المزاج ، وارتفاع الذوق) وعلى ذلك كان منذ صباه . فلما درس وتفقه ، وذهب الى فرنسا يدرس الحقوق تجلت شاعريته وعبقريته وتفرده بضرب من الشعر قلّ ان يدانيه فيه غيره . كان الشعر الجميل الذي يصدر عنه منذ نشأته الى آخر أيامه شعر العواطف والوجدان وشعر الوصف الدقيق ، ولذلك كان شعره من اكثر ما غنى به المغنون ، لأنه سلس جداً وينمّ عن خوالج النفس ، ولا يخلو من عشق واكتئاب وأثر له عدا الشعر الذي تغنى به القوم شعر من شعر العامة او الزجل برز فيه اي تبريز .

هذه هي الناحية الجميلة من شعر صبري ، أما موضوعات الشعر التي عالجها فقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شارك فيها غيرَه من المعاصرين والغابرين: مديح ورثاء، ومجاملات للكبراء والاصدقاء، ومقطوعات تقال في مناسبة لإرضاء فريق من الناس او لإرضاء نفسه فقط. وذكر بعض من ترجموا لصبري انه استسلم للشعر ولكن في قصد واعتدال فلم يتخذه صناعة ولم يتوسل به الى الرقي، ولم يتوسل به الى الكسب. نعم هذا صحيح من جهة لو لا انه مدح اناساً كان يتوقع خيرهم، وكان بيدهم رفعه وخفضه، ولو لا مكانه من الدولة وطموحه الى الترقي في درجات أعمالها، شأن كل عمالها، ما حلاَهم من شعره بحلية ولا نظم فيهم بيتاً. وصبري كسائر الشعراء بل جمهرة الناس أحب ان ينتفع بشعره، ولكن الى حد معقول فيه الاعتدال ولا شك.

ونحن لا يهمنا منه إلا شعره الذي يجب ان يخلد، وهو يرقي ويعلم، ويسر ويحزن، وهذا جملة موضوعات الشعر المفيدة في نظرنا. وما عدا ذلك من معانيه فمسائل يختلف فيها اجتهاد الناس، يهمنا من صبري قوله وكأنه يصف كل نفس تحس وتحب يخاطب فؤاده، ولحن فيه بعض المغنين.

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعة في رَدِّ ما كانا
سلا الفؤادُ الذي شاطرته زمناً ... حمل الصبابة فاخفقْ وحدك الآنا
ما كان ضرّك اذ عُلقتَ شمس ضحى ... لو ادّكرت ضحايا العشق أحيانا
هلا أخذت لهذا اليوم أُهبته ... من قبل ان تصبح الأشواق أشجانا
لهفي عليك قضيت العمر مقتحماً ... في الوصل ناراً وفي الهجران نيرانا

ولحنوا له أيضاً هذه الأبيات الثلاثة:

يا آسيَ الحيّ هل فتشت في كبدي ... وهل تبينت داءً في زواياها
أوّاه من حُرَقٍ اودت بأكثرها ... ولم تزل تتمشى في بقاياها
يا شوقُ رفقاً بأضلاع عصفت بها ... فالقلب يخفق ذعراً في حَناياها

وقال: ولما التقينا قرّب الشوق جُهده ... شجيين فاضا لوعة وعتابا
كأن حبيباً في خلال حبيبه ... تسرّب أثناء الغناق وغابا

وقال: تمسي تُذكرنا الشبابَ وعهدَه ... حسناءُ مرهفةُ القوام فنذكر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما أوفى على قدر الكفاية يُسكر
تثب القلوب الى الرؤوس اذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيتُ تكفر بالنحور قلائدٌ فاذا دنت من نحرها تستغفر
وتزيد في فمها اللآلئ قيمة حتى يسود كبيرهن الأصغر

وقال من قصيدة في ساعة الوداع :

ساعة البين ، قطعة انتُ قدّت للمحبين من عذاب السعير
لا تحيني ، روحي الفداء لماحي لك غداً من صحيفة المقدور

وقال : لما تبوأ من فؤادي منزلاً وغدا يُسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحماً من زفرة أفضت بأسرار الضمير اليه
رفقاً بمنزلك الذي تحتله يا من يخرب بيته بيديه

وله ابيات وكان دخل كنيسة رمس المشهورة بفرنسا ، فرأى مكتوباً على عقرب احدى ساعاتها ما ترجمته (كاهن جارحات والأخيرة القاتلة) يريد ساعات العمر والساعة الأخيرة فقال هذه القصيدة :

كم ساعة آلمني مسها وأزعجتني بدها القاسية
فتشت فيها جاهداً لم أجد هنيهة واحدة صافية
وكم سقتني المرّ أخت لها فرحت اشكوها الى التالية
فأسلمتني هذه عَنوَةً لساعة أخرى وبي ما بيه
ويحك يا مسكين هل تشتكي جارحةً الظفر الى ضَارية
حاذر من الساعات ويلٌ لمن يأمن تلك الفئة الطاغية
وان تجد من بينها ساعةً جَعبتها من غُصص خالية
فَالهُ بها لهوَ الحكيم الذي لم يُنسه حاضرُه ماضيه
وامرَحْ كما يمرحُ ذو نشوة في ظِلّ من تحتها الهاوية
فهي وان بَشتْ وان داعبت محتالةٌ ختالة عادية
عناقها خنقٌ وتقبيلها كما تغصُّ الحية الباغية
هذا هو العيش فقل للذي تجرحه الساعة والثانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا شاكي الساعات اسمع عسى تنجيك منها الساعةُ القاضية

وقال في راحة القبر :

ان سئمت الحياة فارجع الى الار ض تنم آمناً من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأُ م التي خلفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بماحٍ منك الا ماتشتكي من عذابِ
كل ميت باق وان خالف العنو ان مانصّ في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما ت فقد عاد سالماً للتراب

وله ابيات في الشباب والشيب استوحاها من المثل الفرنسوي الذي ترجمته (ليت الشباب يعرف وليت المشيب يقدر Si jeunesse savait , si vieillesse pouvait) يشير الى ما في الشباب من قوة ونشاط يصرفهما في الغواية بغير عقل ، وما في المشيب من عقل وتجربة لا يجد من القوة ما يعينه على الاستفادة منهما وهي :

لم يدر طعم العيش شبـ ـانٌ ولم يدركه شيبُ
جهلٌ يُضلُّ قوى الفتى فتطيش والمرمى قريب
وقوى تخور اذا تشبـ ث بالقوى الشيخ الاريب
بينا يقال كبا المغفـ لُ اذ يقالُ خبا اللبيب
أوّاه لو علم الشبا ب وآه لو قدر المشيب

وللشاعر في هذه المعاني قصائد ومقطوعات حسنة جداً جديرة بأن تتناقل وتستظهر منها في أخلاق الناس :

غاض ماء الحياة من كل وجهٍ فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق في الناس حتى كاد ردُّ السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرتَ على الاجدا ث ورداً إن هن أبدين بشرا
وشفاه يقلن (اهلاً) ولو اديـ ـن ما في الحشا لما قلن خيرا
عمرك الله ، هل سلام وداد ذاك أم حاول المسلم أمرا
عميت عن طريقها أم تعامت أمم في مفاوز الجهل حيرى
غرّها سعدها ومن عادة السعـ ـد يواتي يوماً ويخذُل دهرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتجنت على الشعوب وشنت غارة في البلاد من بعد أُخرى

الى ان قال عبرٌ كلها الليالي ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا؟

وهي طويلة قالها بمناسبة ظهور مُذنب هالي المشهور في سنة ١٩١٠

وكتب الى الأميرة الكسندرة اقيرنيوه (كريمة قسطنطين نعوم الخوري) يرغب اليها في ان تعيد مجلتها (انيس الجليس) الى الظهور بعد احتجابها وذلك سنة ١٩٠٤

خبري القوم يا سمية (اسكندر) ياربة النهى والذكاء

هل لوجه (الانيس) بعد احتجاب من سفور في عالم الأُدباء

فنري فيه كلَّ بحث جديد يقف الحق في صفوف النساء

ان للغانيات حقًا علينا ليس يخفى الا على الجهلاء

وله في صديقته هذه الأميرة اشعار لطيفة والغالب ان الأبيات التي اشتهرت عنه قالها فيها وهو مما كتبه تحت بيتين قالتهما وهما .

فديتك يا هاجري فهل ترتضي بالفدا

سهرت عليك الدجى ونحت ولكن سدى:

فقال أهاجرتي اطفئي لواعج لا تنتهي

مضت في هواك السنون وما نلت ما اشتهي

إذا قيل مات الاديب بفاتنة ، أنت هي

فلما قرأت أبياته كتبت تحتها :

زمانك قبلي انتهى ولا يرجع المنتهي

فحسبيَ ان أزدهي وحسبك ان تشتهي

أراني استرسلت في نقل هذا الشعر العذب ، وكل شعر صبري نمط واحد في العذوبة والسلاسة . ذلك لأنه كان ممن ينقح شعره قبل نشره ، مثل حافظ ابراهيم ، وقد قال في هذا المعنى :

شعر الفتى عرضه الثاني فأحرِ به ألا يُشوَّه بالأقذار والوَضر

فانقد كلامك قبل الناقدين تحط ثاني النفيسين من لغو ومن هذر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلى الجملة فان لشاعرنا العظيم مقطوعات او بيتاً او بيتين تحمل معانيَ كثيرة وتترك سامعها في فكر وتَرْهفُ حسه وما احلى قوله :

اذا خانني خل قديم وعَقني ... وفوّقت يوماً في مَقاتله سهمي
تعرّض طيفُ الود بيني وبينه ... فكسرت سهمي وانثنيت ولم أرمِ

وقال فيه احد مترجميه الاستاذ انطون الجميل إن صبري كان يصوغ هذه هذه الاشعار السهلة بصعوبة فكان جهاده الشعري طويلاً شاقاً ، وهو يجد قوته في تجديد مجهوده . كان يستحث فنه دائماً للاستزادة من الاتقان وجمال الفن . . . . فكان لا يزال يحوّر ويغير ، ويقدم ويؤخر ، وهو متعطش الى مثل أعلى لم يدركه حتى كأنه يقول : (ان أجمل شعري لا يزال في صدري لم أتمكن من نظمه حتى الآن)

ومن قصائده الخالدات على لسان فرعون مصر :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني ... إذا وَنى يوم تحصيل العلا واني
ولست — ان لم تؤيدني فراعنةٌ ... منكم — بفرعون عالي العرش والشان
ولست جبارَ ذا الوادي اذا سلمت ... جباله تلك من غارات اعواني
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا ... فماؤه العذب لم يُخلق لكسلان
رُدُّوا المجرة كدا دون مورده ... او فاطلبوا غيره رياً لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم ... لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسان

ومن هذه القصيدة في وصف الأهرام :

اهرامهم تلك حيرَ الفنّ متخذاً ... من الصخور بروجاً فوق كيوان
قد مرّ دهر عليها وهي ساخرة ... بما يضعضع من صرح وايوان
لم يأخذ الليل منها والنهارُ سوى ... ما يأخذ النمل من اركان ثهلان
كأنها — والعوادي في جوانبها ... صرعى — بناء شياطين لشيطان الخ

وله كلمة مأثورة نشورة سامت شعره في معانيها ، وكأنها اصبحت مثلاً وهي قوله : أحب التوحيد في ثلاثة ، الله ، والمبدأ ، والمرأة . وأحب الحرية في ثلاثة ، حرية المرأة في ظل زوجها ، وحرية الرجل تحت راية الوطن ، وحرية الوطن في ظل الله .

وكان من القائلين بالاكتفاء بزوجة واحدة ومن قوله في ذلك :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا من تزوج من اثنتين ألا اتئد القيت نفسك ظالماً في الهاوية
ما العدل بين الضرتين بممكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانية

ومما قال في خلع السلطان عبد الحميد الثاني :

ان يرجع الخير — نعم الخير من عمل دخلت في زمرة الغر الميامين
أو يغلب الشر — لا كانت عصابته — عُددت في صرحه أقوى الاساطين
ان لم تكن — لاثناك الدهر عن أمد — شيخ السلاطين كن شيخ الفراعين
انا عهدناك لا ترضى اذا استبقت صيد الملوك — الى الغايات بالدون
لا يرهقنك حكم الناس فهو غداً مستأنف عند سلطان السلاطين

وقال ينادي الاقباط في الفتنة التي وقعت بينهم وبين المسلمين سنة ١٩١١ بمقتل بطرس غالي باشا رئيس الوزارة :

مصر أنتم ونحن ، الا اذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملك لنا اذا ما تماسكـ ـنا والا فمصر للغرباء
لا تطيعوا منا ومنكم أناساً بذروا بيننا بذور الجفاء
لا تولوا وجوهكم شطر من عكـ ـر ما في قلوبنا من صفاء
ان دين المسيح يأمر بالعرو ف وينهى عن خطة الجهلاء

واختم هذا بنموذجات من أغاني صبري قال :

ادّك أمير الأغصان من غير مكابر
وورد خدك سلطان على الأزاهر
والحب كله أشجان يا ألب حاذر
والصد ويا الهجران جزا المخاطر

* * *

يا ألب ادِ إنت حبيت ورجعت تندم
صبحت تشكي مالأيت لك حد يرحم
صدأت أولى ورأيت ذلـ المتيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ياما نصحتك ونهيت لو كنت تفهم

* * *

أعرض لحسنك أوراء واكتب وادوّن
وأبات مربع الاشواء واحسب واخمن
دا هجر وصبابه وفراء يارب هوّن
وارحم الوب العشاء دا شيء يجنن

ومما ينسب اليه من المواليا قوله :

في ظل اهداب عيونك ورد خدك آل وحسن يوسف ميراث عنه لوجهك آل
والشمس ويا الأمر في حسنهم لك آل لو الت للصب ال ٠ كل الملاح جندى
ولي الجمال اجمعه من غير مشارك آل

محمد كردعلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net